صور أوربية سريعة

بقلم عابر سبيل

واخيراً سافرت الى اوربا !

اقول « اخيراً » لاني فطرت على كره السفر ومقت الانتقال فلا اسافر الا مضطراً وقد أقمت في مصر ثمانياً وعشرين سنة قبل ان زرت الاسكندرية ولما زرتها في صيف ١٩٢٧ قابلت فيها عظيماً من عظماء مصر فاعرب لي عن استغرابه لعدم زيارة تلك المدينة الجميلة قبل ذلك العام وسألني عن صحة الخبر وقد سمعه من بعضهم فأيدته له قال وكيف تعلل هذا التقصير فقلت ان عقيدتي في السفر كعقيدة قدماء العرب فهو قطعة من العذاب. قال ولكن هذا كان صحيحاً لما كانوا يتطون الابل ويضربون في بطون القفار في فصل القيظ وأيام الشتاء وهم عرضة للجوع والعطش اما اليوم فقد توافرت أسباب الراحة والرفاهية في السفر برًّا بالقطرات والسيارات وبحراً بالبواخر الفاخرة الحاوية لما يكفل دعة العيش. فقلت ان عذابي في السفر ليس من تعب البدن ولكنه من تعب الاعصاب حتى قبل موعد السفر بايام

ولكن الاطباء أصروا على سفري الى فيشي لاستشفي بمائها فلم أجد مناصاً من الطاعة والاذعان وسأعود الى الكلام عن الاستشفاء بمياه اوربا المعدنية

ولا اقصد ان اصف في هذه الرسائل ما زرت من مدن وبلدان ومتاحف واعلام فهذا كله مطبوع في كتب الاسفار والرحلات العربية والافرنجية ولكن سأقصر الكلام على ما وقع في نفسي من مشاهدات رأيتها لاول مرة واستنتاجات استنتجتها من محادثات وملاحظات واقوال سمعتها او نقلت اليَّ فارسم صوراً متفرقة لاضابط لها وقد لا يكون بينها من رابطة سوى ضعف اليد التي ترسمها

وطبعاً ركبت باخرة من بور سعيد الى مرسيليا فسكة الحديد ولم أصب بدوار البحر ولا أضعت حقائبي وظلَّ جواز السفر وسائر الاوراق في جيوبي وبلغت فيشي سليماً معافىً وعدت من اوربا كذلك. ولكن لا يقرأ القارىء بعد هذا شيئاً آخر عن السفر نفسه وتفصيله من غسل الوجه وتنشيف اليدين الى لبس الثياب وركوب تاكسي فالقراء صاروا

يعلّون هذه التفاصيل التي تكاد تكون واحدة لمعظم الناس

ولا بدّ لي هنا من كلمة ثناء على جو اوربا فاني اكره الاجواء القاتمة والكثيرة المطر وأعشق جوّ مصر الصافي ولا اطيق ما يحجب زرقته البديعة من السحب القليلة في ايام الشتاء. وقيل لي قبل السفر ان اوربا كثيرة الغيم والمطر وشديدة العواصف ولكني لم أر غيوماً ولا ابصرت مطراً الا في الايام الثلاثة الاخيرة من رحلتي خصوصاً في مرسيليا وانا عائد منها . اما في ما بقي فكان جوّاً صافياً وشمساً مشرقة حتى في لندن وسواها من بلاد الانكليز فاستطعت ان اقضي الوقت كله في التفرج والطواف . وقد قيل لي أن صيفاً كهذا لا يتمتع به الاوربيون الامرة كل خمسين سنة او مئة فيا لسوء حظهم !

***

اعظم ماوقع في نفسي بعد ما استقرّ بي المقام في فيشي اربعة امور وهي (١) مظهر النظافة العامة في كل شيء وكل مكان و (٢) نصيب المرأة الاوربية من العمل التجاري والصناعي علاوة على الزراعي و (٣) سلوك الجماهير وأدبها و (٤) شيوع قراءة الصحف

النظافة

أما النظافة فعامة لجميع مدن أوربا التي زرتها وقد زرت نحو ثلاثين منها فالشوارع والارصفة والمحطات والحدائق والميادين نظيفة جداً ليس فيها ورق ولا فضلات ولاعلب فارغة غير ان طول الجفاف أدّى الى سقوط ورق الشجر وهو كثير في شوارعهم وميادينهم فكان هذا الورق هو كل ما يراه سالك تلك الشوارع مما يكنس

أما في الفنادق ونحوها والبيوت فالنظافة مستوفية حتى في الغرف [illegible] الفنادق [illegible] أجرة النزول فيها على خمسين غرشاً للطعام والمبيت ولا تقل في نظافتها عن اكبر الفنادق فكل شيء لطيف في غرف النوم وغرف الطعام وغرف الجلوس وفي الحدائق الخ

ويستثنى من هذا كله منظر رأيته في جهات ريتشمند بجوار لندن وكنت قد قرأت عما يشبهه في صحف انكلترا على سبيل النصح تارة والتقريع أخرى فقد أبصرت في ظلال الشجر على ضفاف نهر التايمس فضلات المتنزهين من ورق وعلب لحم ونحوها وكان منظرها قبيحاً تنبو عنه العين فاستغربت ان يكون ذلك في بلاد اشتهر أهلها بمرقان الواجب وحب النظافة والمباهاة بحسن حراجهم وانهارهم وبرّيتهم وهي حقّاً بديعة تسحر الالباب

ولا استطيع ان اصف مبلغ النظافة في الاحياء الفقيرة من المدن الكبرى كلندن وباريس لأني لم ازر تلك الأحياء فيها ولكني رأيت بعض هذه الاحياء في مدن أخرى كبراغ

وزوريخ وجنوى وروما وأقول حقًّا ان منظرها من الخارج تطيب بشرح الصدر ويقر العين حتى الازقة الضيقة القديمة جدًّا في جنوى فاني لم أر فيها قضلات أو اقذاراً أو ورقاً مما يراه المرء في اكثر شوارعنا كشارع عماد الدين وشارع فؤاد وشارع المناخ في كثير من ساعات النهار

المرأة في ميدان العمل

أما نصيب المرأة الاوربية من العمل التجاري والصناعي فكبير لم نألفهُ في الشرق . نعم ان المرأة عندنا تشاطر الرجل العمل الزراعي في القرى والحقول ولكن نصيبها من غير العمل البيتي في المدن لا يزال قليلاً لحسن حظها وحظ الرجل الشرقي . فان مزاحمة اختها الاوربية للرجل آلت الى مشكلات دقيقة في بلدان كبريطانيا حيث يكثر عدد العمال العاطلين ولكنها لم تأت بهذه النتيجة عندنا في بلدان أخرى كفرنسا ففيها ترى المرأة تشارك الرجل أو تحل محله في ادارة الفنادق والمخازن والعمل في مكاتب سكك الحديد والمصانع علاوة على العمل الزراعي وقد تتبعت بعض هذه الاعمال فالفيت المرأة تنهض بها بدقة ونشاط ومهارة تستوقف النظر ففي بعض الفنادق تتولى الزوجة استقبال الضيوف وتعيين الغرف والاشراف على أعمال الخدم وراحة المقيمين في الفندق ونظافة الغرف وضبط الحسابات واخراج فواتير الضيوف بدقة مدهشة في حين ان الزوج يقيم في المطبخ للاحظة طبخ الطعام واعداده وشراء مواده أو مراقبة هذا الشراء

وقد رأيت معظم مخازن نيشي وبعض منها فروع لمخازن باريس المشهورة يد لنساء يتولى بعضهن الادارة والبعض الآخر البيع والبعض الحساب وقبض المال والخاصات منهنَّ يعملنَ أعمالهنَّ بسرعة ودقة غريبتين

ذهبت مع صديق الى مخزن يبيع مصنوعات زجاجية فاخرة فاشترينا مقداراً منها تركناه في المخزن على نية العودة باشياء اخرى تضم الى هذه في صندوق واحد لشحنها الى مصر فلما عدنا اختلط الامر على صاحب المخزن ونسي ما لكل منا من المشترى وما دفعه من الثمن ولكن ابنته وهي شابة اسرعت الى نجدته فقسمت القطع وحسبت الاثمان ما تقدم منها وما تأخر بسرعة غريبة وبدقة تامة وأنقذت الموقف

وهنالك مخازن كبيرة ليس فيها رجل واحد يعمل في خدمتها بل ان كل العمال فيها من نساء وبنات . والظاهر ان فرنسا مضطرة الى هذا بحكم ان الزيادة في عدد أهلها لا تجاري الزيادة في العمل المطلوب وهذا يعلل كثرة الهجرة اليها من ايطاليا وسواها من البلدان المجاورة لها لسد النقص الواقع في الاعمال ولاسيما الزراعية

ادب الجماهير

ولا يسع من يزور مدن اوربا الا الاعجاب بما يرى من سلوك الجماهير فيها واتجاه كل منهم الى قضاء مصلحته بدون ان يعترض مصلحة غيره وباقل ما يمكن من الجلبة والضوضاء. وقد كنا في فيشي نحو اربعين الف زائر للاستشفاء علاوة على اهل المدينة وموظفي الفنادق ومستخدميها وهي اكثر من مئتي فندق وكنا نجتمع غير مرة كل يوم على الينابيع لشرب الماء وقضيت هناك ٢١ يوماً لا اذكر اني رأيت فيها شجاراً او سمعت جلبة وضجة. وقد يعلل هذا بان المجموع هناك كان بالاجمال من طبقات راقية في الشعوب التي يتألف منها وهو صحيح ولكن هذا الذي شهدته في فيشي شهدت امثاله في مدن اخرى تحوي طبقات متفاوتة وفي احوال أشد من التي كنا فيها في مدينة الاستشفاء والماء

ومعرفة ما للمرء من الحقوق وما عليه من الواجبات أمر متأصل في نفوس الاوربيين على ما رأيت فهم عند اجتماعهم لشراء تذاكر السفر في المحطات او البواخر او للقيام بعمل ما يصطفون صفاً اللاحق وراء السابق لا يحاول أحد منهم التقدم على من سبقه مهما كان السبب ولا يسمح الواقفون لاحد ان يتعدى موقفه الاصلي

وفي قطرات المترو اي سكة الحديد تحت الارض في العواصم الكبيرة يقف الذين يريدون ركوبها في محطاتها منتظرين خروج آخر راكب من ركابها قبل ان يدخل واحد منهم للجلوس فيها وهكذا في مركبات الاتوبيس وغيرها ويطول بي المقام اذا حاولت أيراد الشواهد الكثيرة في بيان ما تقدم هنا كسلوكهم في البواخر والحفلات مما هو معروف ومشهور

شيوع قراءة الصحف

وقد استوقف نظري كصحافي عظم الاقبال على قراءة الصحف وكثرة عدد الذين يطالعونها في بلدان اوربا على تفاوت منازلها في الثقافة والتجارة والصناعة فقد أدهشني ان ارى في مدينة صغيرة كفيشي اكوام الجرائد الفرنسوية والانكليزية والمجلات في كل مكان والناس يتقاطرون على شرائها من الصباح المبكر فاذا جاء بعد الظهر وصلت جرائد اخرى فيكون نصيبها من الرواج نصيب الاولى ويتكرر الامر في المساء فيجلس الناس في حديقة الكازينو او مماشي الينابيع وكل منهم يحمل جريدة او اثنتين يطالع ما فيهما والنساء في ذلك كالرجال

وشهدت في لندن ما هو أعظم من هذا في الفندق الذي نزلت فيه « كشك » لبيع الجرائد امام غرفة الطعام الكبيرة تديره امرأة وتباع فيه اشهر الصحف . وفي لندن يخطر

ضيوف الفنادق عادة فيها لان الفنادق تتقاضى أجرة المبيت وثمن الافطار معاً فكنت أرى كل رجل يدخل غرفة الطعام يحمل جريدة معه. وجلست في صباح ذات يوم في غرفة تطل على الكشك فما رأيت رجلا يمر به الى غرفة الطعام الا ويشتري جريدة وكان بعض منهم يشتري جريدتين ولم تكن النساء تشتري كالرجال لان معظمهن كان مع أزواجهن أو آبائهن فيقرأن الصحف معهم

واكشاك الجرائد منتشرة انتشاراً كبيراً في مدن القارة الاوربية وفي كثير من الفنادق . وبعض هذه الفنادق يضع كل يوم في غرف النوم نسخاً من صحف محلية يكتب عليها انها هدية من ادارة الفندق الى الضيف الذي يشغل الغرفة

أما منظر سائق سيارة يطالع جريدة في ضوء مصباح شارع وجرسون قهوة يحدو حذوه في ساعة الفراغ فهذا أمر شائع في أوربا شيوعاً يجعله من الاشياء المبتذلة التي لا يعنى احد بها

وكنت في فينا — وهي عندي أجمل مدن أوربا وأهلها من أفضل خلق الله مناقب ومكارم أخلاق — وفيما أنا عائد من زيارة كنيستها الكتدرائية للقديس اسطفان في مساء الاحد وكان ذلك في اثناء أزمتهم السياسية التي نشأت عن نزاع الوطنيين والاشتراكيين ويوم تقلد الهر شوبر لرئاسة الوزارة — سمعت باعة الصحف ينادون بملحق اظنه لجريدة النيوفري بريسه والصحف في فينا لا تصدر يوم الاحد فرأيت الجماهير تهافت على شراء الملحق تهافتاً مدهشاً وكنت أرى الرجال والنساء يخرجون من الملحق من جيوبهم ويقبضون عليه بايديهم قبل وصول البائع اليهم حتى اذا وصل خطفوا الملحق من يده واعطوه الثمن وهو يواصل السير وبعد دقائق نفدت النسخ التي كانت بأيدي الباعة قبل ان يغيبوا عن ناظري

هذه أمور أربعة كانت في مقدمة ما ارتسم في ذهني على أثر وصولي الى أوربا واستقراري فيها وظلت اثبتها في رحلاتي الكثيرة فألفيتها تكاد تكون عامة على تفاوت في مبلغها طبعاً وكان هذا التفاوت في بعض منها قياساً لي أقيس به مستوى الحضارة في كل بلاد من البلدان الكثيرة التي زرتها

وبالطبع أن طول الاقامة آل الى رسم صور أخرى على ألواح الذهن سأحاول تصويرها للقراء بغير نظام على نحو ما تتيح لي الاطلاع عليها وعلى قدر ما تركت من وقع في النفس. أما التفصيل فليس لي شأن فيه فمن شاءه فليرجع الى كتب الرحلات المطولة

خليل ثابت